الْمِقْبَاسُ مِنْ

نُورِ الاقْتِبَاسِ

فِي مِشْكَاةِ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لابن عَبَّاسٍ

تَصْنِيفُ

الحَافِظِ الإمَامِ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ أحمَدَ بْنِ رَجَب الحَنْبَلِيِّ

رَحِمَهُ الله تعالى

تَهْذِيبُ

عَبْدُ اللهِ آل عَبْدُ المُحْسِنِ

الْطَبْعَةُ الْأُوْلَى

١٤٤١ هـ

الْمُقَدَّمَةُ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

الإمام عبد الرحمن ابن رجب أشهر من أن يعرف، قال عنه ابن فهد: «الإمام الحافظ الحجة والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين»(١).

وقال ابن العماد: «الإمام العالم العلامة الزاهد القدوة»(٢).

إمتاز الإمام ابن رجب رحمه الله بانتقاء الأحاديث المهمة والتي تحتوي على معاني عظيمة وقواعد كلية، وإفرادها بشرح مستقل.

---

(١) لحظ الألحاظ.

(٢) شذرات الذهب (٦ ـ ٣٣٩)

ومنها رسالته هذه حيث أفرد حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا المحتوي على قواعد منهجية شرعية عظيمة قل ما توجد في حديث واحد، بشرح وافٍ قَرب معانيه وشرح قواعده.

إلا أنه رحمه الله يمزج الشرح دوماً بالوعظ، والوعظ يتخلله ذكر لبعض الأحاديث شديدة الضعف، وبعض الإسرائيليات، والتوسع في ذكر الأبيات الشعرية الوعظية، وبعض القصص التي يتوسع في ذكرها القُصاص. وفي هذا التهذيب حاولت التقليل من هذه الأمور تقريبا لفهم العامة من أمثالي، ولتوسيع دائرة القُراء لهذه الرسالة العظيمة، فإن الشرح إذا توسع فيه قل قراءه. والله أسأل أن ينفع بها، كما نفع بأصلها، إنه جواد كريم. وصلى الله وسلم على النبي المختار وعلى آله وصحبه الأخيار.

بسم الله الرحمن الرحيم. وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

خرج الإمام أحمد من حديث حنش الصنعاني: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

وخرجه أيضاً من طريق حنش وحده مختصراً ولفظه: «كُنْتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ فَقَالَ لَي : يَا غُلَامُ إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ فَقَدْ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الْكُتُبُ فَلَوْ جَاءَتِ الْأُمَّةُ يَنْفَعُونَكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ لَمَا اسْتَطَاعَتْ وَلَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَضُرَّكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ لَكَ مَا اسْتَطَاعَتْ»(٣).

وخرجه الترمذي بنحو هذا السياق المختصر، ولفظه: «إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ

---

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٦٩).

أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح(٤).

قلت: وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس رضي الله عنهما التي ذكرناها، وهو إسناد حسن لا بأس به.

ومقصودنا ههنا الكلام على معنى الحديث وشرح ألفاظه، فإنه تضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها. حتى قال الإمام أبو الفرج في كتابه صيد الخاطر: «تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش...، ثم قال: ... فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة الفهم لمعناه».

[شرح الحديث]

فقوله ﷺ: «احْفَظِ اللهَ».

يعني احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أُمر به إلى ما نُهي عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جمعيها، وترك المحرمات كلها، كما في حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه المرفوع: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا»(٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٥) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٣)، والحاكم (٧١١٤)، والبيهقي (٢٠٢١٧) باختلاف يسير.

وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله كما ذكره الله في قوله [تعالى]: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٢-٣٣]. وفُسر الحفيظ ههنا بالحافظ لأوامر الله، وفُسر بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها، وكلاهما يدخل في الآية. ومن حَفظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضاً، والكل يرجع إلى معنى واحد.

ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات الصلوات الخمس. قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا ... كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(٦) ... الحديث.

وفي حديث آخر: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٧) ... الحديث.

وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة، قال النبي ﷺ: «لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»(٨).

فإن العبد تنتقض طهارته ولا يعلم بذلك إلا الله، فالمحافظة على الوضوء للصلاة دليل على ثبوت الإيمان في القلب.

ومما يلزم المؤمن حفظه رأسه وبطنه، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه المرفوع: «الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى»(٩). وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات. وحفظ البطن وما حوى يتضمن

(٦) أخرجه أبو داود (١٤٢٠)، والنسائي (٤٦١)، وابن ماجه (١٤٠١)، وأحمد (٢٢٧٤٥) مطولاً، وليس عندهم: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا»، وإنما: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ».

(٧) أخرجه أحمد (٦٥٧٦)، والدارمي (٢٧٢١)، وابن حبان (١٤٦٧) باختلاف يسير.

(٨) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٣٤)، وأحمد (٢٢٤٣٣)، ابن ماجه (٢٧٨).

(٩) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والترمذي (٢٤٥٨).

حفظ القلب عن الإصرار على مُحرم. وقد جمع الله ذلك كله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ويدخل في حفظ البطن وما حوى: حفظه من إدخال الحرام إليه من المأكولات والمشروبات.

ومما يجب حفظه من المنهيات: حفظ اللسان والفرج. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١٠). ومن حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، ولفظه: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(١١).

وقد أمر الله تعالى بحفظ الفروج خاصة، ومدح الحافظين لها. قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. [و] قال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥-٦].

وقوله ﷺ: «يَحْفَظْكَ»

يعني أنه من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وقال [تعالى]: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال [تعالى]: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وحفظ الله لعبده يتضمن نوعين:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله. وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي

(١٠) أخرجه الحاكم (٤- ٣٥٧)، وابن حبان (٢٥٤٦).

(١١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).

أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»(١٢). وهذا الدعاء منتزع من قوله عز وجل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١] ... الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القَدَر خلوا عنه. وقال علي رضي الله عنه: إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانه مما لم يُقَدَّر، فإذا جاء القَدَر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنةٌ حصينة. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له مَلَك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال: وراءك. إلا شيئًا قد أَذِن الله فيه فيصيبه.

ومن حفظ الله للعبد: أن يحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله. قال بعض السلف: العالم لا يَخْرَف. وقال بعضهم: من جَمَع القرآن مُتِّع بعقله. وتأول بعضهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦]. وكان أبو الطيب الطبري قد جاوز المائة سنة وهو مُمَتع بعقله وقوته، فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢]. إنهما حُفظا بصلاح أبيهما. وقال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ من الله وستر.

---

(١٢) أخرجه أحمد (٤٧٨٥)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٠١)، وابن ماجه (٣٨٧١).

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله عز وجل، فإن الله تعالى يحفظه في تلك الحال، كان بعض السلف في يده الميزان يزن بها دراهم، فسمع الأذان فنهض ونفضها [على] الأرض وذهب إلى الصلاة، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء.

ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه: أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]. قالت عائشة ﵂: «يكفيه غم الدنيا وهمها». قال الربيع بن خثيم: «يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس».

ومن ضيع الله ضيعه الله بين خلقه، حتى يدخل عليه الضرر بشيء ممن كان يرجو أن ينفعه، ويصير أخص أهله به وأرفقهم به يؤذيه. كما قال بعضهم: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي وحماري».

النوع الثاني: من الحفظ وهو أشرفهما وأفضلهما حفظ الله لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والبدع المضلة، والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإسلام.

ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ﵁ أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه: «اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ وفي حديث عمر ﵁ عن النبي ﷺ أنه علمه أن يقول: « اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُطِعْ فِيَّ عَدُوًّا حَاسِدًا»[١٤]. وكان

(١٣) أخرجه البخاري (٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(١٤) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٤٤٥)، والحاكم (١٩٢٤)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢٥٣) باختلاف يسير.

النبي ﷺ إذا ودع من يريد السفر يقول له: «أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك»(١٥).
وفي روايةٍ، وكان يقول: «إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ»(١٦).

وكان عمر رضي الله عنه يقول في خطبته: «اللهم اعصمنا بحفظك وثبتنا على أمرك». ودعا رجل لبعض السلف بأن يحفظه الله فقال له: «يا أخي! لا تسأل عن حفظه ولكن قل يحفظ الإيمان». يعني أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البَر والفاجر فالله تعالى يحفظ على المؤمن دينه، ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون يكرهه. وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فمن أخلص لله خلَّصه من السوء والفحشاء، وعصمه منهما من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة. كما رأى معروف الكرخي شباباً يتهيئون للخروج إلى القتال في فتنة، فقال: «اللهم احفظهم». فقيل له: تدعو لهؤلاء؟ فقال: «إن حفظهم لم يخرجوا إلى ما أرادوا». وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول: «اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين معاصيك». فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه ودعا له بخير.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال: «يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار».

ومنهم من عُصِم بموعظة جرت على لسان من أراد منه الموافقة على المعصية. كما جرى لأحد الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة، فإنه لما جلس من تلك المرأة

(١٥) أخرجه أبو داود (٢٦٠٠)، والترمذي (٣٤٤٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٠٦)، وابن ماجه (٢٨٢٦)، وأحمد (٤٧٨١) واللفظ له.

(١٦) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٤٣).

مجلس الرجل من امرأته، قالت له: يا عبد الله! اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام عنها[١٧]. وراود رجل أعرابية، قال لها: ما يرانا إلا الكواكب. قالت: فأين مكوكبها؟! وهذا كله من ألطاف الله وحيلولته بين العبد وبين معصيته.

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه: أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك فيحول الله بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخيرة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير، يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل».

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات، ولا يكون له فيه خيرة، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر.

وخرج الطبراني وغيره من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَإِنْ بَسَطْتُ عَلَيْهِ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ، لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ، لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ يَطْلُبُ بَابًا مِنَ الْعِبَادَةِ، فَأَكُفُّهُ عَنْهُ، لِكَيْلَا يَدْخُلَهُ الْعُجْبُ، إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[١٨]. وفي الجملة فمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه، تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه، وفي دنياه وآخرته.

(١٧) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(١٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء ص: (١٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٨ – ٣١٨).

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ولي المؤمنين وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلى غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]. وقال [تعالى]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال [تعالى]: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه شيء مما يكره فلا يأت شيئًا مما يكرهه الله منه. كان بعض السلف يدور على المجالس، ويقول: «من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله».

والمعنى: أنك إذا قمت بما عليك لله من حقوق التقوى فلا تهتم بعد ذلك بمصالحك، فإن الله هو أعلم بها منك، وهو يوصلها إليك على أتم الوجوه من غير اهتمام منك بها.

وفي حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللهِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ»(١٩).

فهذا يدل على أنه على قدر اهتمام العبد بحقوق الله وبأداء حقوقه ومراعاة حدوده واعتنائه بذلك وحفظه له، يكون اعتناؤه به وحفظه له، فمن كان غاية همه رضا الله عنه وطلب قربه ومعرفته ومحبته وخدمته، فإن الله يكون له على حسب ذلك كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. بل هو سبحانه أكرم الأكرمين. فهو يجازي بالحسنة عشراً ويزيد، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.

(١٩) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٥٦)، والحاكم (١ - ٤٩٤).

فما يؤتى الإنسان [إلا] من قبل نفسه ولا يصيبه المكروه إلا من تفريطه في حق ربه عز وجل، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه»، وقال بعضهم: «من صَفَّى صُفِّي له، ومن خَلَطَ خُلِط عليه». وقال مسروق: «من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه». وبَسْط هذا المعنى يطول جداً، وفيما أشرنا إليه كفاية، ولله الحمد.

وقوله ﷺ: «احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ» وفي رواية أخرى: «تُجَاهَكَ»

معناه أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

قال قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكُن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل». كتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد، فإن كان الله معك فممن تخاف؟! وإن كان عليك فمن ترجو؟! والسلام».

وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨].

فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان ﷺ قد قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تلك الحال: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(٢٠). فهذا غير المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ... الآية. فإن ذلك عام لكل جماعة. ومن هذا المعنى الخاص الحديث الإلهي وقوله فيه: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، كُنْتُ قَلْبَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»(٢١).

إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على قرب الرب سبحانه ممن أطاعه واتقاه، وحفظ حدوده وراعاه. فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال، فاستأنس به واستغنى به عن خلقه. وفي الحديث: «أَفْضَلِ الْإِيمَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ» (٢٢). وبسط هذا القول يطول جداً.

قوله ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ».

المعنى: أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته، فقد تعرف بذلك إلى الله وكان بينه وبينه معرفة، فعرفه ربه في الشدة وعرف له عمله في الرخاء، فنجاه من الشدائد بتلك المعرفة.

وهذه أيضاً معرفة خاصة تقتضي القرب من الله عز وجل، ومحبته لعبده، وإجابته لدعائه، وليس المراد بها المعرفة العامة فإن الله لا يخفى عليه حال أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(٢٠) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) واللفظ له.

(٢١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١ / ٢،١)، والبيهقي في السنن(٤ / ٩٥).

وقال [تعالى]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وهـذا التعرف الخـاص هـو المشـار إليـه في الحـديث الإلهـي: «وَلَا يَـزَالُ عَبْدِي يَتَقَـرَّبُ إِلَـيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»... إلى أن قال: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ». ومتى حصل هذا التعرف الخاص للعبد حصل للعبد معرفة خاصة بربه توجب له الأُنس به والحياء منه، وهذه معرفة خاصة غير معرفة المؤمنين العامة. توجب طمأنينة العبد بربه وثقته به في إنجائه من كل شدة وكرب وتوجب استجابة الرب دعاء عبده.

لما اختفى الحسن البصري من الحجاج، قيل له: لو خرجت من البصرة فإنا نخاف أن يدل عليك. فبكى، ثم قال: «أخرج من مصري وأهلي وإخواني؟ إن معرفتي بربي وبنعمته علي تدلني على أنه سينجيني ويخلصني منه إن شاء الله تعالى». فما ضره الحجاج بشيءٍ ولقد كان يكرمه بعد ذلك إكراماً شديداً، ويحسن ذكره.

ومما يبين هذا ويوضحه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(٢٣).

قال الضحاك بن قيس: «اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة»، إن يونس عليه السلام كان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله فلما أدركه الغرق قال: آمنت. فقال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقال رشدين بن سعد: قال رجل لأبي الدرداء رضي الله عنه: أوصني فقال: «اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء». قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إذا كان الرجل دعاءً في السراء فنزلت به

---

(٢٣) أخرجه الترمذي (٣٣٨٢)، وأبو يعلى (٦٣٩٦).

ضراء فدعا الله عز وجل، قالت الملائكة: صوت معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاءٍ في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله عز وجل قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له».

وحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة يشهد لهذا أيضًا، فإنهم فرج عنهم بدعائهم لله بما كان سبق منهم من الأعمال الخالصة في حال الرخاء: من بر الوالدين، وترك الفجور، وأداء الأمانة الخفية(٢٤).

فإذا علم أن التعرف إلى الله في الرخاء يوجب معرفة الله لعبده في الشدة فلا شدة يلقاها المؤمن في الدنيا أعظم من شدة الموت، وهي أهون مما بعدها إن لم يكن مصير العبد إلى خير، وإن كان مصيره إلى خير فهي آخر شدة يلقاها. فالواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة والمبادرة إلى ذلك، فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار. وذكر الأعمال الصالحة عند الموت مما يحسن ظن المؤمن بربه، ويهون عليه شدة الموت ويقوي رجاءه.

قال بعضهم: «كانوا يستحبون أن يكون للمرء خبيئة من عمل صالح، ليكون أهون عليه عند نزول الموت». أو كما قال. وكانوا يستحبون أن يموت المرء عقب طاعة عملها من حج أو جهاد أو صيام. وقال النخعي: «كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه». قال أبو عبد الرحمن السلمي في مرضه: «كيف لا أرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان». ولما احتضر أبو بكر بن عياش وبكوا عليه قال: «لا تبكوا، فإني ختمت القرآن في هذه الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة». وروي عنه أنه قال لابنه: «أترى أن الله يضيع

---

(٢٤) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة؟». وقال بعض السلف لابنه عند موته ورآه يبكي قال: «لا تبك فما أتى أبوك فاحشة قط».

فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته، تولاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان وثبته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وآنس وحشته في تلك الوحدة والظلمة.

فمن كان الله أنيسه في خلواته في الدنيا، فإنه يرجى أن يكون أنيسه في ظلمات اللحود إذا فارق الدنيا وتخلى عنها.

وكذلك أهوال القيامة وأفزاعها وشدائدها، إذا تولى الله عبده المطيع له في الدنيا، أنجاه من ذلك كله. قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قال: «من الكرب عند الموت، ومن أفزاع يوم القيامة». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «ننجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة».

وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]. قال: «يُبشر بذلك عند موته وفي قبره ويوم يبعث، فإنه لفي الجنة، وما ذهبت فرحة البشارة من قلبه». وقال ثابت البناني في هذه الآية: «بلغنا أن المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن. فيؤمن الله خوفه ويقر الله عينه، فما من عظيمة تغشى الناس يوم القيامة إلا وهي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله ولما كان عمل في الدنيا». خرج ذلك كله ابن أبي حاتم وغيره[٢٥].

وأما من لم يتعرف إلى الله في الرخاء، فليس له من يعرفه في الشدة لا في الدنيا ولا في الآخرة. وشواهد هذا مشاهدة حالهم في الدنيا، وحالهم في الآخرة أشد، وما لهم من ولي ولا نصير.

---

(٢٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤- ٩٩).

وقوله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ».

أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهى عن سؤال غيره من الخلق، وقد أمر الله تعالى بسؤاله. فقال [تعالى]: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ»(٢٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : «مَنْ لَا يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(٢٧). وفي حديث آخر: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ»(٢٨). وفي المعنى أحاديث كثيرة، وفي النهي عن سؤال الخلق أحاديث كثيرة صحيحة. وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا منهم: أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان رضي الله عنهم، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه(٢٩).

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعًا، وذلك من وجوه متعددة:

١ـ أن السؤال فيه بذل ماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا له بالعبادة والمسألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة.

كان الإمام أحمد يقول في دعائه: «اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك».

---

(٢٦) أخرجه الترمذي (٣٥٧١)، والطبراني(١٠٠٨٨).

(٢٧) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٩٧١٩).

(٢٨)أخرجه الترمذي (٣٦٠٤)، والبزار (٦٨٧٦)، وأبو يعلى (٣٤٠٣) واللفظ له.

(٢٩) انظر صحيح مسلم (١٠٤٣).

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم، كما ثبت ذلك في الصحيحين(٣٠)، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي فيصير عظماً بغير لحم، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي فلا يبقى له عند الله وجاهة.

٢ـ أن في سؤال الله عبوديةً عظيمةً لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها فكيف يقدر على ذلك لغيره؟ وسؤاله إقامة له مقام من يقدر وليس هو بقادر. ويشهد لهذا المعنى حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ». فكيف يسأل الفقير العاجز ويترك الغني القادر؟ إن هذا لأعجب العجب!. قال بعض السلف: «إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو مالكها فكيف أسألها من لا يملكها». يعني المخلوق.

٣ـ أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأله فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء.

والمخلوق غالباً يَكره أن يُسْأَل لفقره وعجزه، قال ابن السماك: لا تسأل من يفر منك وأسأل من أمرك أن تسأله.

قال أبو العتاهية:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسأل يغضب

فاجعل سؤالك للإله فإنما ... في فضل نعمة ربنا نتقلب

(٣٠) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

٤ـ أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤاله، وينادي كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فأي وقت دعاه العبد وجده سميعاً قريباً مجيباً ليس بينه وبينه حجاب ولا بواب، وأما المخلوق فإنه يمتنع بالحجاب والأبواب ويعسر الوصول إليه في أغلب الأوقات.

قال طاووس لعطاء: «إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ويجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك». وقال وهب بن منبه لبعض العلماء: «ألم أُخْبَر أنك تأتي الملوك وأبناء الملوك تحمل إليهم علمك؟! ويحك تأتي من يغلق عليك بابه، ويظهر لك فقره ويواري عنك غناه! وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل وبنصف النهار ويظهر لك غناه؟ ويقول [سبحانه]: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]». ورأى ميمون بن مهران الناس مجتمعين على باب بعض الأمراء فقال: «من كانت له حاجة إلى سلطان فحجبه فإن بيوت الرحمن مفتحة، فليأت مسجداً فليصل ركعتين ثم ليسأل حاجته». وكان بكر المزني يقول: «من مثلك يا ابن آدم؟! متى شئت تطهرت ثم ناجيت ربك ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان».

وسأل رجل ثابتاً البناني أن يشفع له إلى قاض في قضاء حاجة له، فقام ثابت معه، فكان كلما مر بمسجد في طريقه دخل فصلى فيه ودعا، فما وصل إلى مجلس القاضي إلا وقد قام منه، فعاتبه طالب الحاجة في ذلك، فقال: ما كنت إلا في حاجتك. فقضى الله حاجته، ولم يحتج إلى القاضي.

وقوله ﷺ: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

لما أمر عليه السلام بحفظ الله والتعرف إليه في الرخاء وذلك هو العبادة حقيقة ثم أرشد إلى سؤال الله وحده ودعائه، و «الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» كما في حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] ... الآية[٣١].

أرشد بعد ذلك إلى الاستعانة بالله وحده وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]. وهي كلمة عظيمة جامعة يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.

وفي استعانة الله وحده فائدتان:

إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[٣٢]، وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينهُ وَنَسْتَهْدِيهِ»[٣٣]، وأمر معاذ بن جبل رضي الله عنه أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[٣٤]، وكان من دعائه ﷺ: «يَا رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ»[٣٥]، وفي دعاء القنوت الذي كان يقنت به عمر رضي الله عنه وغيره: «اللهم إنا نستعينك ونستهديك». وفي الأثر المعروف

---

(٣١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٣٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٣٣) أخرجه مسلم (٢- ٥٩٣) بدون لفظة «وَنَسْتَهْدِيهِ»، التي أخرجها الشافعي في «المسند» (١- ١٤٧).

(٣٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣).

(٣٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١).

ويقال أن موسى عليه السلام قاله لما ضَرب البحر فانفلق: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، وفي الصبر على المقدورات كما قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. ولهذا قالت عائشة هذه الكلمة لما قال أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا. وقال موسى [عليه السلام] لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

ولما بشر ﷺ عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه قال: «الله المستعان»، ولما دخلوا على عثمان رضي الله عنه وضربوه جعل يقول والدماء تسيل عليه: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعينك عليهم وأستعينك على جميع أموري، وأسألك الصبر على ما ابتليتني».

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في مصالح دينه وفي مصالح دنياه، [قال] عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أول خطبة خطبها على المنبر: «ألا إن العرب جَمَل آنف قد أخذت بخطامه، وإني حامله على المحجة ومستعين بالله عليه».

وكذلك يحتاج العبد إلى الاستعانة بالله على أهوال ما بين يديه من الموت وما بعده.

بكى عامر بن عبد الله بن الزبير عند موته وقال: «إنما أبكي على حر النهار وبرد القيام»، يعني: صيام النهار وقيام الليل، وقال: «وإني أستعين الله على مصرعي هذا بين يديه». وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: «لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه». وقال بعضهم: «فاستغن بالله واستعنه فإنه خير مستعان».

وقوله ﷺ: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ»، وفي الرواية الأخرى: «رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الْكُتُبُ»، وفي الرواية الأخرى: «وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

كله كناية عن نفوذ المقادير وكتابتها جميعها في كتاب جامع من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا كُتب وفُرِغ من كِتابته وبَعد عهده فقد رُفعت الأقلام عنه التي كتبت به وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها وجفت الصحيفة المكتوب به فيها.

وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة على مثل هذا المعنى قال الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله خلق القلم فأمره ليجري بإذنه، وعِظم قَدر القلم كقدر ما بين السماء والأرض، فقال القلم: بم يا رب أجري؟ قال: بما أنا خالق وكائن في خلقي من قَطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رِزق أو أجل. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فأثبته الله في الكتاب المكتوب عنده تحت العرش».

روى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أول شيء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: القدر، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ثم قرأ: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]».

و من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣٦].

(٣٦) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) مختصراً بنحوه، والترمذي (٢١٥٥) باختلاف يسير، وأحمد (٢٢٧٠٥) واللفظ له.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(٣٧).

ومن حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ اليُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»(٣٨).

ومن حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «فَرَغَ اللهُ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ خَمْسٍ مِنْ أَجَلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَأَثَرِهِ، وَمَضْجَعِهِ، وَشَقِيٍّ أَو سَعِيدٍ»(٣٩).

ومن حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ وَكَتَبَ حَيَاتَهَا وَرِزْقَهَا وَمَصَائِبَهَا»(٤٠).

(٣٧) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٣٨) أخرجه أحمد (٦٥٦٣)، و الترمذي (٢١٤١).

(٣٩) أخرجه أحمد (٢١٧٢٣)، وابن حبان (٦١٥٠).

(٤٠) أخرجه أحمد (٢١٤٣)، و الترمذي (٢٦٤٨).

ومن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ » قال: ففيم العمل؟ قال: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ »(٤١).

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة جداً، وكذلك الآثار الموقوفة.

وقوله ﷺ بعد هذا: «فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ».

يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضره أو ينفعه في دنياه فكله مقدر عليه، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً، وقد دل القرآن أيضاً على مثل هذا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. وقوله [تعالى]: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢]. وقوله [تعالى]: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومن حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»(٤٢).

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على هذا الأصل، وما بعده وما قبله متفرع عليه وراجع إليه، فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر أو نفع أو ضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم جميعاً على خلاف المقدور غير مفيد شيئاً

(٤١) أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

(٤٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٩٠).

البتة، علم حينئذ أن الله تعالى وحده هو الضار والنافع والمعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده أيضـًا بالعبادة والطاعة. لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، وأيضـًا فكثير ممن لا يحقق الإيمان في قلبه يقدم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعـًا لضره. فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعـًا كما يوجب ذلك أيضـًا إفراده سبحانه بالاستعانة به، والطلب منه.

وقد اشتملت هذه الوصية العظيمة الجامعة على هذه الأمور المهمة كلها. فإن حفظ العبد لله عز وجل هو حفظ حدوده ومراعاة حقوقه وهو حقيقة عبادته، وهو أول ما صدرت به هذه الوصية. ورتب على ذلك حفظ الله لعبده، وهو نهاية ما يطلبه العبد من ربه ويريده منه. ثم عقب ذلك بذكر التعرف إلى الله في الرخاء، وأنه مقتض لمعرفة الله لعبده في الشدة وهذا هو من تمام حفظ الله لعبده وداخل فيه، إلا أن حالة الشدة لما كان العباد مضطرين فيها إلى من يعرفهم ويفرج عنهم خصت بالذكر لهذا المعنى. وفي هذه الحالة يخلص المشركون الدعاء لله وحده ،ويفردونه بالسؤال والطلب لعلمهم أنه لا يكشف الضر سواه سبحانه، ثم يعودون عند كشف الضر عنهم إلى الشرك كما ذكر سبحانه ذلك عنهم في مواضع من كتابه وذمهم عليه. فأمر [رسوله] ﷺ بمخالفتهم في ذلك بالتعرف إلى الله في حال الرخاء بإخلاص الدين له وحده وبطاعته والتقرب إليه، ليوجب ذلك معرفته لهم في الشدة وكشفها عنهم.

ثم عقب ذلك بذكر إفراد الله بالسؤال، وإفراده بالاستعانة وذلك يشتمل حال الشدة وحال الرخاء. ثم ذكر بعد هذا كله الأصل الجامع الذي تنبني عليه هذه المطالب، وهو: تفرد الله

سبحانه وتعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد ذلك كله إلا ما سبق تقديره وقضاه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو ضر غير مقدر في الكتاب السابق.

وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة والعبادة أيضاً، وأن تقدم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وإن يتقى سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً. وقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله، إِن رزق اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ وَلا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»(٤٣).

وما أحسن قول بعضهم:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هينٌ ... وكل الذي فوق التراب تراب

فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة شيء من التراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب إن هذا لشيء عجاب!

وقد دل القرآن على هذا الأصل وهو تفرد الله سبحانه بالعطاء والمنع في مواضع كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ

(٤٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦).

ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. وقوله تعالى حاكياً عن نبيه نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]... الآية. وقوله تعالى حاكياً عن نبيه هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وقوله ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا».

وفي رواية عمر مولى غفرة ابن عباس رضي الله عنهما زيادة قبل هذا الكلام وهي: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيراً»(٤٤)، ومراده باليقين هاهنا تحقيق الإيمان بما سبق ذكره من التقدير السابق.

فإذا أنت أحكمت باب اليقين فحصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يوجب رضا النفس بالقضاء والقدر وطمأنينتها به، وقد دل القرآن على هذا المعنى بعينه في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣]. قال الضحاك في هذه الآية: «عزاهم لكيلا تأسوا على ما فاتكم، لا تأسوا عل شيء من أمر الدنيا فإنا لم نقدره لكم، ولا تفرحوا بما آتاكم لا تفرحوا بشيءٍ من أمر الدنيا أعطيناكموه، فإنه لم يكن يزوي عنكم». وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم من العافية والخصب إذا علمتم أنه كان مكتوباً عليكم قبل أن يخلقكم».

(٤٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤).

ومن هذا المعنى قول بعض السلف: الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله في الحديث الصحيح عنه: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(٤٥). فأشار في هذا الحديث إلى أن تذكير النفس بالقدر السابق عند المصائب يذهب وساوس الشيطان الموجبة للهم والحزن والندم على تعاطي الأسباب الدافعة لوقوعها.

وقال أنس رضي الله عنه: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلت كذا وكذا؟ ولا شيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟!». وقال: وكان إذا لامني بعض أهله، قال ﷺ: «دَعُوهُ فَلَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ كَانَ»(٤٦).

وخرج ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً أن النبي ﷺ قال لابن سعود رضي الله عنه: «لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ، مَا يُقَدَّرْ يَكُنْ، وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ»(٤٧)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، دَوَاءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ دَاءً، أَيْسَرُهَا الْهَمُّ»(٤٨). فإن تحقيق هذه الكلمة تقتضي تفويض الأمور إلى الله، وأنه لا يكون إلا ما شاء والإيمان بذلك يذهب الهم والغم. وقد وصى النبي ﷺ رجلاً فقال: «لَا تَتَّهِمِ اللهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ لَكَ»(٤٩).

---

(٤٥) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٤٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣١).

(٤٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٢٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢٤٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٨٨).

(٤٨) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٠٢٨)، والحاكم (١/ ٥٤٢).

(٤٩) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٩).

فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته، وأنه غير متهم في قضائه دعاه ذلك إلى الرضا بالقضاء، وقال الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة في هذه الآية: «هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى». وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»(٥٠).

وقد دل القرآن على مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾ [التوبة: ٥١-٥٢]. فأخبر أنه لن يصيبهم إلا ما كتب لهم، فدل على أنه لهم بكل حال سواء كان مما يلائم أو لا يلائم، وأخبر أنه تعالى مولاهم، ومن تولاه الله لم يخذله، بل هو يتولى مصالحه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]. ثم عقب ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ﴾ [التوبة: ٥٢]. يعني إما النصر والظفر، وإما الشهادة، وأيهما كان فهو أحسن.

ومن حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمِنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(٥١). قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يرضى به»، وقالت أم الدرداء رضي الله عنها: «إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى لهم رضوا به، لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وقد روي

(٥٠) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٥١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).

هذا مرفوعـاً من وجه ضعيف. وكان عمر بن عبد العزيز يقول: «لقد تركتني هـؤلاء الـدعوات وما لي في شيء من الأمور إرب إلا في مواقع قدر الله عز وجل»، وكان يدعو بها كثيراً: «اللهـم رضني بقضـائك وبـارك لـي في قـدرك، حتى لا أحـب تعجيـل شـيء أخرتـه، ولا تـأخير شـيء قدمته». وقال ابن عون: «ارض بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر فإن ذلـك أقـل لهمـك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكـون رضـاه عند الفقر والـبلاء كرضـاه عنـد الغنـى والرخـاء، كيـف تستقضـي الله في أمـرك؟ ثـم تسـخط إن رأيت قضاءه مخالفـاً لهواك! ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضـى قضـاءه إذا وافـق هـواك وذلـك لقلـة علمـك بالغيـب! وكيـف تستقضـيه إن كنـت كـذلك؟ مـا أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا!».

وهذا كلام حسن، ومعناه أن العبد إذا استخار الله عز وجل فينبغي له أن يرضى لمـا اختـاره لـه من موافق لهواه أو مخالف لـه، لأنـه لا يـدري في أيهمـا الخيـرة لـه والله سبحانه غيـر متهم في قضاءه لمن استخاره، ومن هاهنا كان طائفة من السلف كابن مسعود رضي الله عنه وغيره يأمرون مـن يخاف أو لا يصبر على ما يخالف هواه مما يختار له أن يقول في استخارته: في عافيـة. فإنـه قـد يختار له البلاء ولا يصبر عليه، وقد روي هذا مرفوعـاً من وجه ضعيف(٥٢).

وللرضا بالقضاء أسباب:

١ـ يقين العبد بالله وثقته به بأنـه لا يقضـي للمـؤمن قضـاء إلا وهـو خيـر لـه، فيصـير كـالمريض المستسلم للطبيب الحاذق الناصح فإنه يرضى بما يفعله به من مؤلم وغيره لثقته به ويقينه أنـه لا يريد له إلا الأصلح.

(٥٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٠١٢، ١٠٠٥٢).

٢ـ النظر إلى ما وعد الله من ثواب الرضا، وقد يستغرق العبد في ذلك حتى ينسى ألم المقضي به كما روي عن بعض الصالحات من السلف أنها عثرت فانكسرت ظفرها، فضحكت وقالت: أنساني لذة ثوابه مرارة ألمه.

٣ـ وهو أعلى من ذلك كله الاستغراق في محبة المبتلي ودوام ملاحظة جلاله وجماله وعظمته وكماله الذي لا نهاية له، فإن قوة ملاحظة ذلك يوجب الاستغراق فيه، حتى لا يشعر بالألم كما غاب النسوة اللاتي شاهدن يوسف عن ألم تقطيع أيديهن بمشاهدته.

والمقصود أن النبي ﷺ أمر ابن عباس رضي الله عنهما بالعمل بالرضا إن استطاعه، ثم قال له ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ، فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا». وهذا يدل على أن الرضا بالأقدار المؤلمة ليس بحتم واجب وأنما هو فضل مندوب إليه، فمن لم يستطع الرضا فليلزم الصبر، فإن الصبر واجب لا بد منه، وفيه خير كثير، فإن الله تعالى أمر بالصبر ووعد عليه جزيل الأجر قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال [تعالى]: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

قال الحسن: «الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن». قال سليمان الخواص: «الصبر دون الرضا، والرضا: أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأي ذلك كان، والصبر: أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر».

وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم لكن الرضا

يخفف الإحساس بالألم لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس به بالكلية.

ولهذا قال طائفة كثيرة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز، والفضيل وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: «إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر».

وقد روي عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى أيضاً وأنهم كانوا لا يتمنون غير ما هم عليه من الحال، منهم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما.

وكما أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، كما صح ذلك عن النبي ﷺ[٥٣]، فالرضا إنما يكون بعد نزول البلاء، كما كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»[٥٤].

لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء قبل وقوعه، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة. فمن رضي بعد وقوع القضاء، فهو الراضي حقيقة.

وفي الجملة: فالصبر واجب لا بد منه، وما بعده إلا السخط، ومن سخط أقدار الله فله السخط مع ما يتعجل له من الألم وشماتة الأعداء به أعظم من جزعه.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٥٥].

وقال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا الصبر». وقال علي رضي الله عنه: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له».

وقال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الجنة، لا يعطيه الله إلا لمن كرم عليه».

---

(٥٣) أخرجه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٦٢٦).

(٥٤) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤ - ٥٢٥).

(٥٥) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وقال ميمون بن مهران: «ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير، نبي فمن دونه إلا بالصبر»، وقال إبراهيم التيمي: «ما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى، وصبراً على البلاء، وصبراً على المصائب، إلا وقد أوتي أفضل ما أوتيه أحد بعد الإيمان بالله عز وجل».

وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ... إلى قوله [تعالى]: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. والمراد بالبأساء الفقر ونحوه، وبالضراء المرض ونحوه، وحين البأس حال الجهاد.

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبر الجميل هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها. قال طائفة من السلف في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ [يوسف: ١٨]. قالوا: «لا شكوى معه». [و] كان الأحنف بن قيس قد ذهبت عينه من أربعين سنة ولم يذكرها لأحد. وذهبت عين عبد العزيز بن أبي رواد من عشرين سنة، فتأمله ابنه يوماً فقاله له: يا أبت، قد ذهبت عينك! فقال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك من عشرين سنة. وكان الإمام أحمد لا يشتكي ما به من المرض إلى أحد، وذكر له أن مجاهداً كان يكره الأنين في المرض، فتركه فلم يئن حتى مات، وكان يقول لنفسه: «يا نفس اصبري وإلا تندمي».

كان الرسول ﷺ وأصحابه يشدون على بطونهم الحجارة من الجوع[٥٦].

(٥٦) أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

كانت مصائب الدنيا عندهم نعمًا، حتى قال بعضهم: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة».

وقال بعض السلف: «إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمد الله إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمد الله إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني».

وانتظار الفرج بالصبر عبادة فإن البلاء لا يدوم.

إذا غمس أعظم الناس بلاء في الدنيا في نعيم الجنة غمسة، قيل له: هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ قال لا يا رب(٥٧).

وقوله ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ».

هذا موافق لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] ... الآية. وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] ... الآية. وقوله تعالى في قصة طالوت: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾... إلى قوله [تعالى]: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ... الآيات.

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في الأمر بالصبر عند لقاء العدو [وهي] كثيرة جداً.

قال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر. وسئل البطال عن الشجاعة فقال: «صبر ساعة».

(٥٧) يشير المصنف لما أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما من أعظم الجهاد كما قال النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللهِ»(٥٨).

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لرجل سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها».

ويروى بإسناد ضعيف من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: لقوم رجعوا من الغزو: «قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ» قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: «مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ لِهَوَاهُ»(٥٩).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر رضي الله عنه حين استخلفه: «إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك».

فهذا الجهاد أيضاً يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غلب وقهر وأسر، وصار ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»(٦٠).

واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عرفت منك الجد جدت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك، وطلبت منك حظوظها وشهواتها.

(٥٨) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠)، والترمذي (١٦٢١).

(٥٩) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣).

(٦٠) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٨).

فقوله ﷺ: «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»، يشمل الصبر على جهاد العبد لعدوه الظاهر، وجهاده لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه، وكان السلف يفضلون هذا الصبر على الصبر على البلاء.

وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي».

قوله ﷺ: «أَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»

هذا يشهد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨] ... الآية. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ ... الآية، إلى قوله [تعالى]: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وقول النبي ﷺ في حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عَبْادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ» خرجه الإمام أحمد(٦١)، وخرج ابنه عبد الله(٦٢) من حديث أبي رزين أيضاً في حديث طويل عن النبي ﷺ قال: «عَلِمَ اللهُ يَوْمَ الْغَيْثِ أَنَّهُ لَيُشْرِفُ عَلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ غِيَرَكُمْ إِلَى قُرْبٍ».

والمعنى أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم وخوفهم وإشفاقهم ويأسهم من الرحمة، وقد قدر الله تغيير هذه الحال عن قرب بإنزال المطر ولكنهم لا يشعرون.

---

(٦١) في المسند (٤/ ١١، ١٢).

(٦٢) في السنة (٤٥٢، ٤٥٣).

وهذا كما اشتكى ذلك الرجل إلى النبي ﷺ وهو قائم يخطب يوم الجمعة احتباس المطر وجهد الناس فرفع النبي ﷺ يديه فاستسقى لهم حتى نشأ السحاب ومطروا إلى الجمعة الأخرى حتى قاموا إليه ﷺ فطلبوا منه أن يستصحي لهم ففعل فأقلعت السماء(٦٣).

وقد قص الله في كتابه قصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة، كما قص نجاة نوح [عليه السلام] ومن معه في الفلك من الكرب العظيم، مع إغراق سائر أهل الأرض.

وكما قص نجاة إبراهيم عليه السلام من النار التي ألقاه المشركون فيها وأنه جعلها برداً وسلامًا، وكما قص قصة إبراهيم [عليه السلام] مع ولده الذي أمر بذبحه ثم فداه الله بذبح عظيم.

وكما قص قصة موسى عليه السلام مع أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجى الله موسى في البحر وأغرق عدوه.

وقصة أيوب ويونس ويعقوب ويوسف [عليهم](٦٤) السلام وقصة قوم يونس لما آمنوا.

وكان قص الله قصص محمد ﷺ ونصره على أعدائه ونجاته منهم في عدة مواطن مثل قصته في الغار وقصته يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين.

وكما قص سبحانه قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث الإفك وبرأها مما رميت به(٦٥). وقصة الثلاثة: ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨](٦٦).

---

(٦٣) أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٦٤) في الأصل «عليه» والمثبت أصح.

(٦٥) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٦٦) أخرجه البخاري (٤٦٧٧)، ومسلم (٢٧٦٩).

وفي السنة من هذا المعنى شيء كثير أيضـًا، مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم(٦٧).

ومثل قصة إبراهيم [عليه السلام] وسارة مع الجبار الذي طلبها من إبراهيم ورد الله كيد الفاجر(٦٨).

والحكايات الواقعة في هذا المعنى في الإسلام وقبله كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها وكثير منها مذكور في الكتب المصنفة.

قوله ﷺ: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

هذا منتزع من قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وعن الحسن قال: «كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين».

وخرج ابن جرير(٦٩) من رواية معمر عن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يومـًا مسروراً فرحـًا وهو يقول: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، ... ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]». وخرجه أيضـًا من رواية عوف ويونس عن الحسن مرسلاً أيضـًا.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لو أن العسر دخل في جحر، لجاء اليسر حتى يدخل معه، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

---

(٦٧) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٦٨) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٦٩) في تفسيره (٣٠/ ١٥١).

ومن حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أن أبا عبيدة رضي الله عنه حُصر فكتب إليه عمر رضي الله عنه يقول: مهما ينزل بامرئ من شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا، إنه لن يغلب عسر يسرين، وإنه يقول: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠](٧٠). وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في هذه الآية: «لن يغلب عسر يسرين».

ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا وفوائدها وحكمها:

١ـ تكفير الخطايا بها، والثواب على الصبر عليها، وهل يثاب على البلايا بنفسه؟ فيه اختلاف بين العلماء.

٢ـ تذكر العبد بذنوبه فربما تاب ورجع منها إلى الله عز وجل.

٣ـ زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها. قال بعض السلف: «إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له».

٤ـ انكسار العبد لله عز وجل وذله له، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

٥ـ أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة، وذلك من أعظم فوائد البلاء، وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. وقال [تعالى]: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. وفي بعض الكتب السابقة: «إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه». وقال سعيد بن عبد العزيز: «قال داود عليه السلام: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء».

---

(٧٠) أخرجه ابن أبي الدُّنْيَا في «الفرج بعد الشدة»، ص ٢٤.

٦ـ أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه والرضا به، وذلك مقام عظيم جداً، وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه.

٧ـ أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده. وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد فكيف بالمؤمن؟!. فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات.

وإذا اشتد الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذٍ قريباً في الغالب. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. وقال: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: ٢١٤] ... الآية. وأخبر عن يعقوب عليه السلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف، وقال لإخوته: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧] ... الآية. وقال [تعالى]: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣].

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجد الأياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق وحده، ومن انقطع عن التعلق بالخلائق وتعلق بالخالق، استجاب الله له وكشف عنه. فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، كما قال الإمام أحمد، واستدل عليه بقول إبراهيم [عليه السلام] لما عرض له جبريل في الهواء وقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا[٧١].

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال [تعالى]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]. قال الفضيل: «والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاك كل ما تريد».

(٧١) ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيراً إلى ضعفه (٥/ ٣٢٧).

٨ـ أن العبد إذا اشتد عليه الكرب فإنه يحتاج حينئذٍ إلى مجاهدة الشيطان، لأنه يأتيه فيقنطه ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب مجاهدة عدوه ودفعه: دفع البلاء عنه ورفعه. ولهذا في الحديث الصحيح: «يُسْتَجَابُ لأحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي فَيَدَعُ الدُّعَاءَ»(٧٢).

٩ـ أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ويئس منه ولا سيما بعد كثرة الدعاء وتضرعه ولم يظهر له أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللائمة ويقول لها: إنما أُتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت. وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه فلذلك يسرع إليه حينئذٍ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله، على قدر الكسر يكون الجبر.

فمن تحقق هذا وعرفه وشاهده بقلبه، علم أن نعم الله على عبده المؤمن بالبلاء أعظم من نعمه في الرخاء، وهذا تحقيق معنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»(٧٣). ومن ههنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى، بل أيهما قدر الله رضوا به وقاموا بعبوديته اللائقة به.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا؛ فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»(٧٤).

---

(٧٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٧٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٧٤) أخرجه أحمد (٥ - ٢٥٤)، والترمذي (٢٣٤٧).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره؟».

وقال عمر بن عبد العزيز: «أصبحت يوماً وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر».

يا هذا لم نستدعيك إلينا وأنت تفر منا! نسبغ عليك النعم فتشتغل بها عنا وتنسانا! فنفرغ عليك البلاء لترد إلينا! وتقف على بابنا، ونسمع تضرعك! البلاء يجمع بيننا وبينك! والعافية تجمع بينك وبين نفسك!.

يا هذا! إن شكرت نعمنا عليك، فتوفيقك للشكر من جملة نعمنا فاشكره! وإن صبرت على بلائنا، فالصبر من جملة فضلنا فاذكره! فكل ما تتقلب فيه فهو من نعمنا فلا تكفره! ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إذا كان شكري نعمةً ... علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه منةٌ ... تضيق لها الأوهام والبر والبحر

آخره والحمد لله وحده، وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا يا رب العالمين.

ووافق الفراغ منه في ليلة يسفر صباحها عن ليلة الثلاثاء خامس شهر ربيع الأولى من شهور سنة ثلاث وتسعين وثماني مائة، عَلَى يد فقير عفو ربه الممجد عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي، عامله الله بلطفه الخفي وغفر له ولوالديه، ولمن نظر فيه ودعا لي بالمغفرة وحسن الخاتمة، إنه بر رحيم جواد لا يخيب من دعاه.